اعجاز القرآن الكريم

من سلسلة مقالات لحضرة الاستاذ الجليل الشيخ مصطفى عنانى

أجمع المسلمون على أن القرآن معجز ، واختلفوا فى طرق اعجازه على أنحاء شتى ، وطرق عدة ، فمنهم من قال : فصاحته وبلاغته ، ومنهم من قال : أسلوبه الخارق عادة العرب فى مناهج نثرها، ومنازع نظمها ، ومنهم من قال : أخباره بالمغيبات ، ومنهم من قال : بالصَّرفة ، الى غير ذلك

ونحن نقول : إن القرآن معجز بألفاظه ، وتراكيبه ، وأساليبه ومعانيه ، وآثاره ، وجملته

أما من جهة ألفاظه ، فان العرب قد رأت منه كلمات ناصعة ، ومفردات مختاره ، يسهل على اللسان النطق بها ، لا يتعثر فيها ، ولا يلتوى عندها ، ليس فيها وحشى غريب ، ولا سوقى مبتذل ، ولا متنافر مهجور ، على كثرة شيوع الكلمات المستكرهة والالفاظ الغامضة فى خطب المصاقع ، وشعر المفلقين ، مع أخذهم الحيطة لذلك وتحرزهم من الوقوع فيها ، يشهد لهذا ما نراه فى خطبهم وشعرهم ، وما تواتر عنهم من التريث والتمهل فى قول الشعر ورصفه ، واختيار كلماته والحفل بها ، حتى إن بعضهم كان لا يظهر القصيدة إلا بعد سنة كاملة ، وكان الأدباء يسمون هؤلاء وأمثالهم عبيد الشعر

ذلك لأنهم لم يعولوا فيه على طبعهم وعادهم ، بل رجعوا الى التعمل

والتكلف وبالغوا فى الاختيار ، وأغرقوا فى الانتقاد ، وتغالوا فى التنقيح والتهذيب ، ولعلك قرأت شعرهم ورأيت فى ألفاظهم ما رأيت ، مما لا تحتاج معه الى تذكير مذكر أو لفت منبه .

هال العرب تلك الكلمات الرائعة ، والالفاظ المصطفاة ، فقصرت قواها وضعفت مكنتها عن الوصول اليها ، والظفر بها على هذا النحو العجيب ، ولو كان هذا ميسوراً لهم ، سهلا عليهم ، ما تأخروا ولا ونوا ، أما أنت فان خامرك الشك ، وساورك الريب ، (ولا إخالك) فاقرأ القرآن كله وانقد مفرداته نقد الصيرفىّ الماهر ، تتجل لك الحقيقة ، وتشعر ببعض ما شعرت به العرب

وان أردت أن تصل الى اليقين من طريق الحجة ، مع الوصول الى غرضك والحصول على طلبتك ، من أقصر طريق ، وأسهل منحى فوازن بين مفردات سورة تختارها ، أوقصيدة تنتقيها ، أو خطبة تصطفيها ، وأنا كفيل لك أنك ترى البون شاسعاً ، والفرق ساطعاً ، وترجع بعد ذلك قرير العين مثلوج الصدر ، منقوع الغلة ، ولابد لك قبل السير فى هذا الطريق الوعر ، أن تختلف الى معلم ماهر ، واستاذ قدير ، ليكشف لك الستار ، ويقفك على ما خفى من الأسرار ، ثم ترجع بعد ذلك الى كتب أولئك الذين نصبوا أنفسهم لنقد المفردات ، والتراكيب ، والبحث فى المعانى والأساليب ، ولا أقل من أن ترجع الى المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى

والموازنة بين الطائيين للآمدى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ، ونقد الشعر لقدامه . والكتب كلها مطبوعة ، والحصول عليها سهل يسير

وأما من جهة تراكيبه ، فقد رأوها بريئة من التكلف ، بعيدة عن الصنعة والتعمل ، متينة السرد ، وثيقة الأسر ، قد تلاءمت مفرداتها ، وتجانست أشكالها ، واستوت تراكيبها ، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يجذب بعضها بعضاً ، حتى أنك لتخال أن الجملة لشدة تماسك أجزائها ، ومكان تجاذبها كلمة واحدة ، فلا تكد فكر سامعها ، ولا تجهد متفهمها ، تتناول من كثب ، وتكاد تلمس باليد ، وتبصر بالعين ، وترتسم فى النفوس ، ارتسام الاشكال فى الطروس ، تظهر عليها النضارة فى حقيقتها ومجازها ، وأطنابها وإيجازها . ترى الكلمة قد ضمتها البلاغة الى أختها ولاءمت السلاسة بينها وبين تربها حيث لا يصلح سواها ، إذ هى قصارى ما يتطلبه المعنى ، ونهاية ما يحتاج اليه المبنى ، ولن تجد على كثرة البحث والتنقيب كلمة قد أكرهت على مكانها ، وقهرت على موضعها لمكان سجع أو ضرورة فاصلة ، أو ما شاكل ذلك ، كما أنك لن ترى كلمة دماها التركيب ، وجفاها المعنى ، أو نبا عنها الذوق ، ولست ظافراً بشىء من ذلك فى كتاب الله تعالى ، على ما فيه من الطول وكثرة تصاريف الكلام ، وشدة بحثك وتنقيبك . ارجع الى نفسك ، وتعهد حسك ، تر الجملة من القرآن يتمثل بها ، فى غضون كلام كثير ، فتكون

غرة جمعه ، وواسطة عقده ، ومشرق نوره ، ينم عليها حسنها ، ويشير اليها جمالها

ولا يعزب عنك أن تراكيب القرآن الكريم ، وضعت لمعان مبتكرة ، وأمور مستحدثة : من تدوين شرائع ، وتدبير أحكام ، واحتجاج فى أصل الدين . ورد على الملحدين الى غير ذلك

وبدهى أن تخير التراكيب للمعانى المتداولة بين الناس الدائرة بينهم ، أقرب تناولا ، وأسهل عملا ، من الخلق للمعانى المبتدعة ، والامور المستحدثة ، ومن خبر عرف ، ومن عانى اعترف

وإنك لتشعر بالفرق الواضح بين من يخترع الكلام اختراعاً ، ويبتدهه ابتداهاً ، ومن يتروى فيه ، ويجيل الفكر فى تنقيحه ، ويصبر نفسه عليه ، طَبق ما عرفته من أسرار الكلام التى تعب فى استنباطها أساطين البلاغة ، وأولو البصر بالقول ، على آى القرآن الحكيم ، تجد ذلك غيضاً من فيض ، وقطرة من بحر ، ولن يقطع عنك الشك ، ويثلج صدرك باليقين إلا الموازنة فالجأ اليها ، وعول عليها ، ورض نفسك قبلُ على القول المتقن ، ومرنها على الصواب ، وعودها كشف الأسرار ، واحكم بعد ذلك ولا تشطط ، وأنت (بلا ريب) ستهدى الى سواء الصراط . وليس هذا بالأمر الهين ، ولا بالشىء السهل ، وانما هو الصعوبة كلها ، فاجهد جهدك ، وأجمع أمرك ، إن كنت من أهل الاجتهاد ، وإلا فاقنع بظاهر القرآن ، ودع هذا لفرسان الميدان

وأما من جهة أسلوبه فأنت تعلم أن الاسلوب هو ذلك الطريق

الذى يتوخاه الكاتب ، ويختاره الناظم ، ويلاحظه الخطيب ليصل به الى بيان معانيه وأغراضه ، ومقاصده وآرائه . وان جودة الأساليب ودقتها ، وحسنها وبراعتها ، تدل على قدرة الكاتب ، وقوة الناظم ، وحصافة الخطيب ، إذ بها يؤثر البليغ فى أفئدة سامعيه فيخلب عقولهم ، ويتحكم فى نفوسهم ، ويستلين قناتهم ، ويستفز حميتهم ؛ ويستثير دفائنهم ، ويستأثر بجملتهم

لولا اختلاف الأساليب وتباينها ، وصلابتها ولينها ، وسهلها وحزنها ، ما بزّ خطيب خطيباً ، ولا هوى شاعر وعلا شاعر ، ولا سقط كاتب وصعد كاتب ، بل كان الجميع كأسنان المشط ، إذ الألفاظ لكلهم مبذولة ، والمعانى كلأ مباح . وانما الفضل فى ظهور هؤلاء فى كل أمة وفى كل زمان . ومكان راجع الى الأساليب

يأخذ الشاعر أو الكاتب أو الخطيب المعنى الذى كثر استعماله ، وشاع تناوله ، حتى صار سوقياً مبتذلا ، وعامياً ساقطاً ، فيضعه فى أسلوب مبتكر ، وقالب جديد ، فيخرج للناس وكأنهم لم يسمعوه من قبل ، وليس هذا بغريب فالصانع الماهر يأخذ قطعة المعدن وهى لا يؤبه لها ، ثم يكسبها من صناعته ما يلفت اليها الانظار ، ويدهش بها العقول ، حتى لا ترى بينها وبين أصلها نسباً ؛ وإن القطعة الواحدة من الذهب تصهر فتوضع فى قوالب مختلفة فتخرج وقد اكتسبت أذواق صناعها فترى بعضها يعمل فى نفسك ، ويأخذ بنظرك ، وبعضها

تنبو عنه العين ، وينقبض له الصدر ، وكثيراً ما تكون قيمة المصنوع من الأحجار أغلى من الذهب النضار ، لمكان الصنعة ودقة العمل ، وما التماثيل الحجرية التي تراها في دور الآثار ، فتسحر عينك وتبهر لبك ، فتقدرها بمئات الألوف ، إلا أحجار كثيرة الوجود ، زهيدة الثمن ، قيمتها ما ينفق عليها في حملها من مكان الى مكان ، ومن جهة الى أخرى ، وهل نزلت من نفسك تلك المنزلة ، ونالت منك هذا الاعجاب لشيء غير أحكام صنعتها ودقة عملها

(يتبع) مصطفى عنانى

موقعة شريش الحاسمة أو فتح الاندلس

(تكملة لسالفة)

منقولة من الجزء الثانى من كتاب نزهة القارئ للمدارس الثانوية

تأليف حضرة الأستاذ احمد الاسكندرى

فالتقى جيش طارق بجيش رذريق على نهر يصب فى خليج قادس من المحيط يسمى (وادى لطة[1]) على سهل من الارض يسمى فحص[2]

---

(١) خص بعض المؤرخين نهر (بكة) بالموقعة وهو نهر صغير مجاور لوادى لطة

(٢) يطلق الفحص فى عرف عرب الاندلس على كل واد معمور ثم توسعوا فى اطلاقه على كل معمور سهلا كان أو جبلا كما نقله ياقوت